هذا. ولم يستطع الإفلات من فك كماشة الغزالي إلا القلة الجسورة من أمثال ابن رشد، الذي تجاسر على الدخول إلى جوف الحوت وتمزيق حججه من الداخل، ليتركها أشلاء تئن، ولا من مجيب على حجج إبن رشد أو يتصدى لها حتى الآن، إذ إن إبن رشد أظهر بالدليل القاطع والبرهان الأكيد تهافت حجج الغزالى ونظرياته.

ولكن قبل الانتقال إلى ذلك الجزء، لا بد أن نشير إلى أن الغزالي، على براعته وعفويته، إلا أنه لم يعامل الآخرين بمثل ما يعامل نفسه. فنراه من ناحية يسمح لنفسه بعدم طاعة التقليد، بينما يلزم الآخرين الانصياع لتقليد آرائه، مكفّرًا من لا يقبلها. فكما قاده عدم انصياعه للتقليد إلى اكتشاف الحقيقة، كذلك قد يقود عدم الانصياع إلى تقليد أفكاره إلى الحقيقة أيضًا. فلا يجوز زجر الناس أو قمعهم وتكفيرهم وردعهم عن السعي إلى الفلسفة واكتشاف الحقيقة بأنفسهم. وقد يدافع عن الغزالي قائل بأن الغزالي توصل إلى الحقيقة وبالتالي يحق له أن يكفر الفلاسفة ويفرض على أصحابه الالتزام بتقليده. ولكن الميل إلى عدم الالتزام بالتقليد ليس عملًا إراديًا وإنما هو نزعة لا يستطيع الإنسان الفكاك منها بسهولة، كما يوضح ذلك الغزالي نفسه الذي لم يستطع التهرب من ذلك الميل. فزجر من يجد في نفسه الميل إلى عدم اتباع التقليد وتكفيره من الإنسان الذي عصى التقليد ولم يتبعه لهو في أحسن الأحوال مراآة (مرائي) وفي أسوأها تناقض صارخ. فعلى الغزالى أن يسمح للآخرين بأن يتمتعوا بنفس الحقوق التى تمتع بها بحكم الطبيعة.

## ابن رشد (1126–1198م.)

لا شك أن ابن رشد هو قمة من القمم الفلسفية في التاريخ الفلسفي. ويمثل بلا منازع قمة الفكر الفلسفي العربي بل الإسلامي. فبداية الإشعاع الفلسفي في الغرب قد تكون بدأت منه بصفته شارح أرسطو. وحتى القديس توما الأكويني الذي يعتبر المنظّر الأول في الكنيسة الكاثوليكية تأثر بآراء ابن رشد الفلسفية وحتى الدينية. أما الفلاسفة العرب، فليس من مفكّر

عربي معاصر مجلّ إلا ودرس ابن رشد وعلّق عليه وبدأ رحلته الفلسفية معه.

وعند دراستنا لابن رشد نجد أنه عالج كل المشاكل الفلسفية التي عالجها أرسطو مفسرًا أو شارحًا أو معلقًا. بينما المشاكل التي عالجها الفلاسفة العرب قبله، فأعاد البحث فيها وأخرجها إخراجًا يتناسب مع مسلماته الفلسفية التي في أكثر الأحيان استقاها من أرسطو أو الإسلام.

**حياته**

ولد "محمد بن أحمد بن رشد" الملقب "بأبي الوليد" في قرطبة في الأندلس سنة 1126م. ونشأ في بيت علم وفقه وجاه، إذ كان جده قاضي قضاة الأندلس. وكان والده قاضي قرطبة. تتلمذ ابن رشد على أيدي أفضل الأساتذة في عصره. درس اللغة والفقه والشريعة والأدب والطب والفلسفة والفلك وبرع فيها جميعًا. ألّف كتابًا في الطب سماه "الكلّيات" وعيّن طبيبًا للخليفة "أبو يعقوب يوسف" عام 1182م. بعد وفاة طبيبه الخاص ابن طفيل.

لا يمكننا فهم ابن رشد جيدًا إذا لم نتعرف على تاريخ العرب في الأندلس والتوجه الديني السائد هناك. فبعدما استولى العباسيون على الخلافة في المشرق العربي، فرّ الأمير الأموي الملقب "عبد الرحمن الداخل" مع نفر من أصدقائه الموالين للأمويين إلى المغرب وهناك أسس مملكة أموية في الأندلس (699م). وكان المذهب السائد في المغرب هو المالكية من أتباع مالك الذي ينحو نحو الظاهرية ويمقت التشعب النظري. فلم تظهر في المغرب فرق كلامية أو فلسفية مماثلةً للفرق التي ظهرت في الشرق. وكان المالكيون يتجنبون الخوض في المسائل النظرية والفلسفية.

شهد المغرب العربي فترة تجدد عقب تأسيس دولة الأمويين في الأندلس وتعاون بين الشرق العربي والمغرب العربي. فاندفع ملوكها وراء ترسيخ دعائم الملك. وانفتح بعضهم على العلم والعلماء وأسسوا المكتبات وجمعوا الكتب في عمل مشابه لما قام به المأمون عند تأسيسه بيت

الحكمة وبخاصة في زمن المستنصر 961-976م ولكن هشام الثاني خليفة المستنصر (976-1009م.) أصدر أمرًا بإحراق الكتب في المنطق وعلم الفلك. ولكن بقي هذا الانفتاح قاصرًا على الطبقة الحاكمة في المجتمع. والسلام الذي عم في الأندلس تزعزع في فترة حكم ملوك الطوائف التي شهدت نزاعات جمة بين الملوك والأمراء. ولكن ظهرت دول قوية مثل دولة المرابطين التي أعقبها دولة الموحدين ومؤسسها عبدالمؤمن الذي كان يعرف جيدًا الفرق التي ظهرت في الشرق وكان رغم اتباعه المذهب المالكي يشجع دراسة العلوم الفقهية. فأمر بإنشاء المدارس ومعاهد العلم والأدب في مملكته. ودعا عبدالمؤمن ابن رشد للقدوم إلى مراكش سنة 1153م. ليساعده في هذا الجهد. فلبّى ابن رشد الدعوة وتعرّف هناك إلى كبار مشاهير العلماء والأطباء أمثال ابن زهر وابن طفيل. وعندما خلف "أبو يوسف يعقوب" عبدالمؤمن في الخلافة، جعل ابن طفيل طبيبه الخاص ومستشاره الثقافي. فكان ابن طفيل يجمع العلماء ويشجعهم على نشر العلوم في المملكة. وكان هو نفسه فيلسوفًا لامعًا إذ كتب قصة "حي ابن يقظان" التي يتحدث فيها عن طفل عاش في جزيرة نائية لا يقطنها إنسان غيره. شرب من حليب ظبية حنّت عليه ثم تعلم كيف يعيش مع الحيوانات والطبيعة وكبر حتى أصبح يفكر في الوجود وخالق الوجود وتوصل إلى أن العالم مخلوق من خالق جبار أبدي غير مادي لا يمكن الوصول إليه إلا بالتفكير والشطحات الصوفية. يلتقي حي رجلًا أتى الجزيرة للانقطاع عن الدنيا والتعبد اسمه آسال ويتعرفان على بعضهما ويحب أحدهما الآخر ويصطحب آسال حي إلى جزيرته السابقة ويعرفه على رئيسه السياسي سلامان وأصدقائه السابقين، الذين يتبعون التعاليم الدينية القويمة والتقاليد السّنية. فيجد حي أن سلامان وقومه يعيشون بحسب النصوص أما هو فيفضل العودة إلى جزيرته تاركًا الناس تعيش بحسب قوانينها وسياستها ويتوجه إلى التعبد إلى ربه والعيش على طريقته. ويستنتج ابن طفيل أن هناك طريقتين متكاملتين للوصول إلى الله، أي الطريق التي أوصت بها السُّنة

وطريق التصوف والتعبد أو المعرفة الاستشراقية أي الفلسفة.

قدم ابن طفيل ابن رشد إلى الخليفة أبو يعقوب يوسف الذي اشتكى من "قلق عبارة أرسطوطاليس أو عبارة المترجمين عنه". فلم يعرف ابن رشد معنى دعوة ابن طفيل له للقاء الخليفة، ولكنه عندما رأى الخليفة يسأله في مواضيع فلسفية مثل رأي قدماء الفلاسفة اليونانيين في السماء، تعجب من ذلك لأن دراسة الفلسفة في المغرب العربي لم يكن مرغوب فيها ولا مستحسنة سياسيًا. فأنكر ابن رشد اشتغاله بالفلسفة، ولكن بعدما سمع رأي الخليفة واستفاضته في التحدث عن الفلسفة، انشرحت أساريره وتشجع في مشاركته الحديث. فطلب إليه ابن طفيل أن يسهل عبارة أرسطو ويشرحها كي يتسنى للخليفة وغيره فهمها. ثم عينه الخليفة لاحقًا قاضيًا على أشبيلية وقربه إليه. وبعد وفاة ابن طفيل جعله طبيبه الخاص سنة 1182، ثم قاضي قرطبة. ولقي الحظوة أيضًا في عهد ابنه الخليفة المنصور الذي قربه إليه كثيرًا. ولكن الفقهاء رموه بالزندقة وادعوا أنه أنكر آيات من القرآن وقال بتأليه بعض الكواكب كالزهرة وأنه وصف الخليفة المنصور بـ"ملك البربر". فأوغروا صدر الخليفة عليه فنفاه إلى قرية "اليسانة" بالقرب من قرطبة عام 1195م. وأمر بحرق كتبه وتحريم دراسة الفلسفة في كل أرجاء مملكته. ولكن الخليفة عاد بعد عام واستدعاه واسترضاه، ولكن ابن رشد لم يعمر كثيرًا إذ توفي في سنة 1198م.

### مؤلفات ابن رشد

وبسبب إحراق كتبه فقد الكثير من مؤلفات ابن رشد. ولم يحفظ منها إلا القليل أو ما كان قد ترجم إلى اللغة اللاتينية أو العبرانية أو ما قد حفظ بأحرف عبرية. تقسم مؤلفات ابن رشد إلى قسمين: شروحات وتعليقات على أرسطو وأفلاطون ومؤلفات أصلية. اتّبع الطريق المتبعة في شروحاته فكان منها المختصر أو التلخيص الصغير حيث يعرض ابن رشد مثلًا رأيه بكتاب البرهان عند أرسطو من دون أن يتقيد بحرفية الكتاب. ثم التلخيص أو الشروح الوسطى حيث يتناول ما ورد في كتاب البرهان لأرسطو فقرة

فقرة ويشرحها. أما في الشروح الكبيرة فيتبع ابن رشد النص الأرسطي ولكنه يشير إلى المشكلات التي يصادفها ويذكر آراء الشراح الذين سبقوه حولها ثم يضيف إليها رأيه. ومن الكتب التي شرحها لأرسطو كتاب ما بعد الطبيعة والطبيعة والنفس والمنطق وغيرها.

أما الكتب الإبداعية غير المتعلقة بتفسير الفلسفة اليونانية فوصلنا أهمها كتاب (تهافت التهافت) الذي يفند فيه آراء الغزالي في الفلسفة ويدحض فيه تكفير الغزالي للفلاسفة. وكتاب فصل المقال في ما بين الحكمة والشريعة من اتصال وكتاب الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملّة وكتاب بداية المجتهد ونهاية المقتصد.

ترجم العديد من شروحاته إلى اللاتينية مما أسهم في انتشار الفلسفة في أوروبا وخاصة فلسفة أرسطو. واعتبره الفلاسفة العبرانيون، خاصة ميمونيدس وتلميذه يوسف بن يهودا، الشارح الأكبر عن أرسطو وأصبح يعرف عند الفلاسفة الغربيين بالشارح. فترجم الفلاسفة العبرانيون أولًا كتب ابن رشد وشروحه إلى العبرانية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر. ومع بداية القرن الثالث عشر ترجم روجر بايكون (1294م.) وريمون مارتن (1284م.) ابن رشد إلى اللاتينية من العبرانية. ومن بعد ذلك توالت الترجمات لأعماله وأصبح ابن رشد جزءًا لا يتجزأ من تاريخ النهضة الفلسفية في أوروبا. ولكن بعض اللاهوتيين المسيحيين اعتبروا أن لكتابات ابن رشد تأثيرًا سيئًا على الكنيسة فأمروا بإحراقها متهمين إياه بالزندقة. وأدى ذلك إلى اضطهاد تلامذته واتباعه الذين كانوا يسمون "الرشديون اللاتينيون" Latin Averroists.

## علاقة الحكمة بالدين أو العقل بالإيمان

شاع في القرون الأولى لظهور الإسلام اعتقاد بأن على المسلمين الابتعاد عن أخذ العلوم من غيرهم، وأن الأفكار الدخيلة التي تأتيهم من خارج الإيمان إنما هي مفسدة، وبالتالي اعتبروا أن العلوم اليونانية هي

مدعاة للتفرقة بين المسلمين ونشر الخلاف في وجهات النظر عندهم. وتجلى هذا الموقف في دعوة الغزالي إلى ترك الفلسفة، كما أشرنا سالفًا، لأنها تضر بالمسلمين وتقود إلى الكفر. ومع أن الغزالي حض على دراسة الرياضيات وعلم المنطق، إلا أن إشارته إلى وجود أضرار عرضية تنتج عنها جعلت الناس تبتعد أيضًا عن دراسة المنطق وأعتُبر أن من تمنطق فقد تزندق.

يتخذ ابن رشد موقفًا صريحًا من هذا الاعتقاد فيرى أن الفلسفة أو النظر الفلسفي إنما هو معرفة الموجودات من حيث دلالتها على الصانع، ويتبع في ذلك الفيلسوف العربي الأول الكندي . والمعرفة تأتي بناء على قواعد واضحة وصريحة. وعلى المسلم المؤمن أن يلمّ بها. وليس كل المسلمين أو الناس، في اعتقاده، مهيئين لهذه المعرفة، إذ الناس فئات ولهم طباع مختلفة. فمن كانت لديه هذه المقدرة والميل، فعليه السعي إلى الحصول على هذه المعرفة. وقد مشى على هذا الطريق أناس قبلنا واكتشفوا أسس علم المنطق الذي يتم من خلاله التفكير الصحيح. فعلى المسلمين، إذًا، أن يتعلموا هذه الأسس. وعلى الرغم من أن المسلمين الأوائل لم يعرفوها، كما لم يعرفوا أسس القياس، ومع هذا استخدم الفقهاء القياس في علومهم. والقياس ليس إلا جزءًا من علم المنطق ومن الفلسفة التي تدرس التفكير من كل جوانبه. وهناك أيضًا علوم الهندسة والفلك والطب وغيرها. فعلى المسلمين السعي لدراستها، لأنه لو لم يكتشف اليونانيون هذه العلوم قبل مئات السنين، فلن يكون باستطاعة المسلمين معرفة كيف يبدؤون أو يتوصلون إلى اكتشاف هذه العلوم الآن، حتى ولو حاولوا ذلك. فعليهم التفتيش عن هذه العلوم في كتب الأقدمين والاستفادة منهم. فإذا حصلوا على كل المعرفة في هذه العلوم، أصبح بإمكانهم معرفة حدود هذه العلوم وما إذا كان الأقدمون توصلوا إلى اكتشاف الحقيقة أم لا، فإذا ما اكتشفوها قبلنا، أخذناها عنهم، وإذا فشلوا في ذلك نبهنا على ذلك وتابعنا الطريق حتى نصل إلى الغاية ويستفيد من يأتي بعدنا مما أنجزنا.

مكتبة الفكر الجديد

## مسألة قدم العالم

رأينا سابقًا أن الغزالي كفّر الفلاسفة لقولهم بأن العالم قديم وليس حادثًا. وتظهر صعوبة هذا الموقف في ما يؤدي اليه، لأن الحادث أو حدوث العالم يدل على حصول تغيير في الله، ويبقى تفسير هذا التغير عصيًا على الإنسان. فقال الغزالي بأن العالم حادث عن إرادة قديمة اقتضت وجوده في الوقت الذي وجد فيه. فيرُدّ ابن رشد هذا القول على اعتبار أن الإرادة هي شرط الفعل. فلا يمكن أن تحصل الإرادة التي هي شرط الفعل من دون حصول الفعل. لأنه إذا تأخر الفعل تأخرت الإرادة وإن كانت الإرادة قديمة كان الفعل قديمًا.

يرفض ابن رشد دليل الأشاعرة والغزالي وغيرهم من المسلمين، لأن الشريعة لا تقول إن العالم محدث بإرادة قديمة أو محدثة. وإن البراهين والأدلة التي تأتي بها الشريعة هي من النوع البسيط والقريب جدًا من الأذهان وفهم جميع طبقات الناس. فالأدلة الواردة في الشريعة هي من النوع الذي مقدماته بسيطة ونتائجه قريبة. والأدلة التي أتى بها الشرع هي اثنان: دليل العناية ودليل الاختراع. وهذان الدليلان يقر بهما جميع الناس. وليس يمكن إقامة البرهان عليهما بحيث إنه لا يمكن قبول المقدمات ونفي النتيجة كما يحصل في القياس التام الذي هو من نوع: كل إنسان فانٍ، سقراط إنسان، إذًا سقراط فانٍ. ولكن من النوع الذي لا يمكن أن نقول معه أن هناك شيئًا يتصف بكل صفات المصنوع ومع هذا ليس له صانع، وإنما حصل بالاتفاق. وهذه صفة من صفات العقل، فكما نستنتج من قولنا إن أوصاف الشيء «ج» تتطابق كلها مع أوصاف الشيء الآخر «د» وليس هناك أوصاف ل «ج» ليست أوصافًا لـ «د»، وبالتالي إن «ج» و«د» هما نفس الشيء. وكذلك لا يستطيع العقل البشري أن يرى حجرًا ملقى في الطبيعة وله صفات الكرسي من حيث دقة صنعه، وله أبعاد معينة بطول معين وعرض معين، وبشكل معين وفي مكان معين بحيث يصلح للجلوس فيه، من دون أن يستنتج أنه قد صنعه صانع مريد له، جعله كي يكون على

المنحى الذي وجد فيه. وهكذا الأمر مع وجود العالم. فالعالم هو من هذا القبيل، صنع بشكل حكيم ودقيق لكي يصلح لعيش الإنسان. والدليل الأول على ذلك هو ما يسميه ابن رشد دليل الاختراع الذي يقول إن هناك أشياء تحدث في العالم كخروج الحياة من الأشياء المادية كما هي الحال في النبات والحيوان. والدليل الثاني هو دليل العناية الذي يقول إن الكائنات والعالم بما فيه من كواكب ونجوم وشمس وعناصر طبيعية وغيرها كلها مؤاتية ومفيدة لحياة الإنسان. فيصعب بعد التسليم بهذين الدليلين تصور وجود هذا العالم وبهذه الصفات المفيدة للإنسان من دون حصول الاعتقاد بوجود خالق مدَبر أراد للعالم أن يكون بالشكل الذي هو عليه وللغاية التي أراد.

## القضاء والقدر

هناك فرقتان مشهورتان في الإسلام واحدة وهي الجبرية وتقول بأن الإنسان مجبر على أعماله ولا حرية له في ذلك ومع ذلك فهو يتحمل وزر أفعاله فيثاب على الخير منها ويعاقب على الشر منها. وفرقة المعتزلة التي تقول بأن الإنسان حرّ في أفعاله قادر عليها وعلى اختيار الخير ورفض الشر. أما الأشعرية فقالت بأن الإنسان مجبر على أفعاله ولكنه يكسب الثواب إذا أصابت أفعاله التي يشترك فيها بالنيّة والإرادة وليس بفعل الخلق خيرًا وينال عقابًا إذا أدّت إلى الشر.

يرفض ابن رشد موقف الأشعرية لأنه لا يميز بين الأفعال الإرادية، التي يقوم بها الإنسان بملء إرادته، والأفعال القسرية غير الإرادية التي يضطر الإنسان إلى القيام بها. كما يرفض قول الجبرية بأن الإنسان مجبر على أفعاله. ويشارك المعتزلة بقوله إن الإنسان حرّ في تصرفاته وقادر على القيام بها. ولكنه يرى أن المسلمين أجمعوا على قول أن لا خالق سوى الله. فالإنسان إذًا لا يخلق أفعاله. وبالتالي ليس حرًا كما قالت المعتزلة. كما أن الإنسان ليس مجبرًا على القيام بأفعاله لأن ذلك يقضي بعدم

مسؤولية الإنسان عن فعل الشر. ولكن الله قدّر كل شيء حينما وضع الأسباب في الأشياء. فكل شيء مقدّر بسبب. وهناك سلسلة الأسباب الموضوعية في العالم ولا شيء يحدث بلا سبب. وطالما أن الأفعال هي تصرفات موضوعية فلا تحدث بلا أسباب سابقة تحددها. فلا تحدث حرّة وخالية من الأسباب. وكذلك النفس ففيها أسباب ولا تحدث الرغائب بلا أسباب. فيكون الإنسان مجبرًا على أفعاله ليس من الله ولكن من الأسباب التي وضعها الله في نفس الإنسان وفي الطبيعة والعوامل الطبيعية خارج الإنسان. فالإنسان حرّ بإذن الله ووجود سلسلة الأسباب في العالم هو ما يسمى القضاء والقدر.

أما عن وجود الشر في العالم، فيقول إن الشر هو عدم وجود الخير. وإن الإنسان مسؤول عن وجود الشر. وإن الله سمح بوجود الشر لأن وجود الشر القليل في الخير الكثير هو لحكمة الله وقضائه وقدره.

## الخلاصة

هذا هو ابن رشد عملاق الفلسفة العربية والإسلامية الذي معه تربعت على عرش الفلسفة في العالم لعدة قرون. إليه سعى طلبة الفلسفة من كل حدب وصوب وخاصة من أوروبا ليتعلموا الفلسفة منه. فتكونت مدرسة فلسفية خاصة تعرف بالمدرسة الرشدية اللاّتينية تؤيد موقفه من أولويّة العقل وتتبّع أسلوبه في النظر الفلسفي وتَقَبُّل توفيقه بين الفلسفة والدين. أما بالنسبة إلى أتباعه في دار العرب والمسلمين فقد أوضح بأن الناس طبقات أعلاها طبقة أهل البرهان الذين يبنون مسلّماتهم على العقل والبرهان ويليها طبقة الديالكتيكيين أو علماء الكلام الذين ينطلقون من مسلّمات مبنية على الإيمان. ويأتي في المرتبة الدنيا الخطابيون الذين ينطلقون من مسلّمات على السماع. وأكّد ابن رشد أنه لا يجوز لأي من الطبقتين الأخيرتين أن توجّه سهام النقد إلى أهل البرهان لأن مسلماتهما غير برهانية لا بل واهية، كما أثبت في كتابه الكشف عن مناهج الأدلة. ولكن ارتباط الفلسفة بالسلطة